المحاضرة رقم :06

المذهب التجريبي:

بدأ بزوغ المذهب التجريبي مع التطورات العلمية التي أخذت تجتاح الساحة المعرفية، والتجريبية في مفهومها التقليدي برزت مع فلاسفة القرنين السابع والثامن عشر، أمثال بيكون ولوك، وهيوم؛ واستمرت في مفهومها الجديد مع النفعيين والتطوريين وأصحاب الوضعية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وقد اتجه اهتمام المذهب التجريبي في بدايته الأولى العناية الكبيرة بنظرية المعرفة وتوسع نطاقها بعد ذلك، ليشمل كثيرا من الموضوعات المتعلقة بالأخلاق والتشريع والسياسة والتربية والعلم ...، فضلا عن المعرفة فما طبيعة الملسمات التي يأخذ بها المذهب التجريبي في نسقه الفكري؟

1ـ مسلمات المذهب التجريبي:

يتأسس المذهب التجريبي في مبدئه الفكري على مسلمة أساسية، وهي ذات مظهرين: اما الأساسية، فهي تعتبر أن المصدر الجوهري الأسبق لكل أنواع المعرفة، هو التجربة، وهي مسلمة تتفرع إلى جزأين الأول نقدي يتم خلاله استبعاد المذهب العقلاني من أصوله، والثاني تأسيسي، يتم فيه بناء المذهب التجريبي، وهما:

1- أن العقل ليس بإمكانه أن ينشئ بالفطرة المعاني والتصورات وليست له القدرة على خلع صفة الصدق على ما يبدعه من معارف.

2- العلم بكل صوره يرتد إلى التجربة.

اختبارات مسلمات المذهب التجريبي:

1- لا يستطيع العقل أن يبدع بالفطرة المعاني والتصورات والأفكار بمعزل عن التجربة، لأن العقل من حيث طبيعته ليس له القدرة على خلع صفة الصدق على ما يبدعه من معارف، لذلك يستند التجريبيون في موقفهم هذا إلى مجموعة من الحجج مبررين وجود انزلاقات كثيرة في مذهب العقلانيين:

لقد رفض التجريبيون التسليم بالأفكار الفطرية الموروثة، والمبادئ العقلية البديهية والقواعد الخلقية الأولى التي لا تأتي عن طلريق الاكتساب، وأنكروا الحدس الذي يزعم أهله أنهم يدركون به الأوليات الرياضية والمنطقية وذلك:

لأن عقل الفرد يكون قبل التجربة عبارة عن ورقة بيضاء ليس فيها أي أثر للتجربة، فهو لا يعرف شيئاً، ويبدأ في اكتشاف العالم الخارجي عن طريق الحواس، فبأي وسيلة سحرية هذه يتمكن من ادراك الأفكار العقلية الأولية بصورة مباشرة لا واسطة بينهما ؟ وهل يعقل الحديث عن أفكار جاهزة قبلية يحملها كل انسان بالفطرة دون انتظار تأثير العالم الخارجي عن طيق الحواس ؟ لذلك كل انطلاقة من عالم الأشياء تقتضي رفض كل منطلق آخر غيره سواء كان حدساً أو إلهاماً، يؤكد "فرنسيس بيكون" في قوله:" إن منهجي على الرغم من صعوبته في التطبيق، سهل في الشرح، منهجي هو أن نرسي درجات متزايدة من اليقين .. أن نستمر في الأخذ بشهادة الحواس، ونساعدها ونحصِّنها بنوع من التصويب، ولكن نرفض، بصفة عامة، العملية العقلية التي تتلو الاحساس؛ بل نفتح مساراً جديداً للعقل أكثر وثوقاً يبدأ مباشرة من الادراكات الحقيقية الأولى للحواس"[1] .

بما أنّنا نعرف المحسوس قبل المجرد والخاص قبل العام، ولا نصل إلى المجرد إلا انطلاقاً من الملموس، وهذا ما أكده "جون لوك" حين اعتبر أن الأبيض ليس كالأسود، واللذة ليست الألم؛ فلا يعقل القول بأننا بهذه القضايا الملموسة والجزئية، لأننا نسلم بقضايا أخرى مجردة وعامة، وهي بمثابة المبدأ بالنسبة إلى القضايا الأولى.

كذلك أن المبادئ لا يمكن أن تكون فطرية فيما يرى " لوك "، إذا كانت الألفاظ المكوّنة لها غير فطرية فالمبادئ القائلة مثلا، أن لكل واقعة علة أو لا يمكن للشيء أن يكون هو ذاته وضده في نفس الوقت، ومن نفس الوجهة ، لا يسعها ـــ هي وأمثالها ـــ أن تكون فطرية إذاكنا لا نملك فكرة فطرية عن كلمتي واقعة وشيء، بل كل ما هنالك يرتد إلى التجربة ، "وأن بناء المفهوم يرتبط ضرورة بسلسلة من العلميات الفكرية والتجريبية التي تنتجه وتشّرعه"[1] .

وجاء رفض التجريبيون لما ذهب إليه العقلانيون على أساس أن العقل غير قادر على الوصول إلى أي علم يقيني ثابت بطريقة الفطرة، وما تجود به من أوليات كلية، ذلك أن الأحكام العقلية تتغير بتغير الزمان والمكان، وتختلف باختلاف الظروف والأحوال، وبحسب كذلك مجالات الموضوعات التي تثار فيها، بناء على أن العقل لم يعد يتصور كنظام مغلق وصارم من المبادئ المحددة قبليا، وإنما كواقع

---

[1] – فرنسيس بيكون: الأورجانون الجديد، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ـ مصر، ط1، 2013، ص 10.

[1] – عمر الشارني: المفهوم في موضعه، أو في العلاقة بين الفلسفة والعلوم، دار الجنوب تونس، الطبعة الأولى، 1992، ص 120.

يمتاز بالتطور والديناميكية، تتوسع في اطاره عملية المعرفة. اما الجهد العقلي المبذول في الشأن المعرفي، فإنه يتوقف كثير على الســـياق التاريخي وعلى حال تطور المعارف التي أضـــاءتها تقنيات الملاحظة والتجريب، ولهذا فإن العلم يتقدم بفضـل التجاوزات المتتالية لأشـكال عقلية قديمة تبيّن فيما بعد عن فقدان صلاحيتها"[2].

كذلك لو ثبت مدى صـلاحية وصـحية هذه المبادئ الكلية والمعاني الفطرية، لتسـاوى الناس في العلم بها في كل زمان ومكان، وما يعتقد في مبدأ عدم التناقض أو الهوية أو غيرهما مما يظن أن المبادئ الفطرية لا يعرفه إلا قلة من أصـــحاب الثقافة ويجهله الأطفال والمعتوهون والمتوحشـــون، أما المبادئ العملية ـــ سواء أكانت خلقية أو قانونية ـــ فهي محل إختلاف بين الناسفي الزمان والمكان. كذلك ينطبق هذا الأمر على القيم الأخلاقية حتى وإن كانت في جوهرها واحدة، لكن في مادتها تأخذ طابعاً نسبياً، فما هو عدل أو خير بالقياس إلى هذا، فإنه ليس بالضـرورة أن يكون كذلك في موضـع آخر. ويمكن تمثيل هذه القاعدة الواقعية على شعوب وحضارات باختلاف الحدود الزمانية والمكانية.

2-العلم فكل صوره يرتد إلى التجربة.

أـــ لقد نشأت فكرة السببية نشوءاً طبيعياً عند الانسان بسبب ما كان يلاحظه في العالم الخارجي من تغير في طبيعة الأشـــياء، فما انفك الشـــيء الواحد يتغير ويتبدل من حال إلى حال، حتى يندفع العقل إلى التساؤل: أيكون هناك علاقة بين الحموضة مثلا التي حلت بالطعام وبين ارتفاع درجة الحارة في الهواء المحيط به ؟ وإذا كان هناك علاقة بينهما فماذا تكون ؟ يقول لوك: " لا يوجد شـــيء في العقل إلا وقد سبق وجوده في الحس"[1].

ويسـتند التجريبيون إلى التأكيد، أن من فقد حاسـة، فقد المعاني المتعلقة بها، فالليمونة مثلاً، يصـل إلينا لونها عن طريق حاسـة البصـر، ورائحتها عن طريق حاسـة الشـم وطعمها عن طريق الذوق ، فلو تناولها كفيف البصـر، فإنه ليس بإمكانه معرفة لونها، كذلك الأصـم لا يعرف الأصـوات وهكذا، ومن هنا تبيّن أن دور الحواس في غاية الأهمية لكونها تنقل الأشـــياء من العالم الخارجي إلى العقل، فليس للعقل قرة كافية عن معرفة طبيعة الأشياء في غياب وظائف الحواس.

---

[2]- Gaston Bachelard: Le nouvel esprit scientifique, PUF, Paris, 14èd , 1978, p.139.

[1]-John Locke : Essai sur l'entendement humain, traduit par Jean-Michel Vienne, Librairie philosophique J.Vrin, Paris 2001, p.12.

كذلك يوستوحى مفهوم السببية من التجربة، فقد لاحظ الناس في جميع الأجيال والعصور أشياء معلولة، وأخرى عللا لها وربطوا الأولى بالثانية؛ فأصبحت فكرة العلة مقترنة بفكرة العلة ، اقتران المتضايفين الذين لا يفهم أحدهما إلا بالاضافة إلى الآخر. وهذه الرابطة القوية الدائمة التي اكتسبت بالتجربة، هي أساس ما يسمى بالضرورة في تحديد مبدأ العلية. بمعنى أن مبدأ العلية ضروري في معرفة حقيقة العلاقات الموجودة بين الأشياء والظواهر، وهي في الواقع ليست من بداهة الادراك القلي، بل مستوحاة من التجربة، هذا ما يدحض الرؤية الميتافيزيقية التي استند إليها العقلانيون، وعلى ضوء هذا الموقف الذي دعمه التجريبيون أمثال هيوم وجون ستيوارت مل يكشف في النهاية عن مجموعة من الاختلالات التي أصابت الموقف العقلاني في أساسه الفكري.

وبهذا فهم "دافيد هيوم" أن الرصيد الفكري الذي يضمه العقل من معاني وتصورات ومفاهيم لا يخرج عن سياق تأثير التجربة في تشكيلها على مستوى العقل، كذلك يعود الأمر إلى انعكاس أثر العادة على حياة الناس بحكم أن العادة مكتسبة بفضل تراكم مجموعة من التجارب وليست فطرية، ينطبق هذا الأمر في مجال سلوكات الناس وعلى أخلاقهم وأفكارهم ومعتقداتهم عبر سلسلة من الأفعال التي يوحي بها الواقع وعلى مدى ارتباط الماضي بالحاضر في تكوين صورة أو فكرة عن الخير والشر وعن الصحة والخطأ والضار والنافع ...فهذه الأفكار من حيث طبيعتها مستمدة من تجارب الحياة، ولم يكن العقل قد فطر عليها منذ الولادة كما يزعم أنصار المذهب العقلاني. ولذلك فجميع أفكارنا يمكن أن تحلل ـ في نظرهم ـ إلى مدركات بسيطة مستمدة من التجربة، والقضايا الرياضية التي يتخذ منها العقليون حجة لهم ليست في نظر جون ستيورات مل، سوى تعميمات تجريبية مثلها مثل باقي الأفكار المجردة"[1]

ب ـــــ إن العلم بجميع أشكاله، لا يرتد فقط إلى التجربة وحدها بل يحدث له اتساع كلما اتسعت تجارب الانسان وتطورت المعارف العلمية، مما يدل على أن أفكارنا تتسع كلما ازدادت خبراتنا كثافة في حياتنا اليومية، مما يدل دلالة واضحة على أن التطور يحدث نتيجة التغير الذي يمس من الناحية المبدئية البنية العقلية، على أساس أن البنية العقلية بنية متحول ومتغيرة يحصل لها ذلك عندما يتقدم التفكير العلمي ويتضاءل الفكر الأسطوري وتضيق دائرة تأثير السحر والخرافة في العقل .

---

[1] – محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط5، 2002، ص 121.

للقضاء على هذا النوع من الأفكار الخرافية التي اسقرت في المخيال العام، فإن طريقة الشك هذه، لم تكن غائبة عن أذهان أنصار المذهب التجريبي، بل "لقد كانت فكرة الشك ورفض الأوهام كثقافة حاضرة بعناية في الأوساط الفلسفية، " والأوهام عند بيكون مثل الشك عند ديكارت يستبعد من مجاله قضايا الدين. لمن ثمة فارقا جذريا بين الاثنين، فبينما يضع "ديكارت" الشك منهجا شخصيا فيبقى بالتالي للاجتهاد الشخصي إمكان تطبيقه في المجالات التي استبعدها هو، نجد بيكون حين يعرض "أوهام العقل" ، وكذلك حين يمضي إلى تفصيل المنهج الاستقرائي، لا يعكس نظرة ابستيمولوجية، ولا يفكر إطلاقا في المسألة من حيث هي تساؤل عن قيمة المعرفة"[2].

ومن هذا الباب بدأت مواقف المذهب العقلاني تتغير بسبب استفحال الامتداد العلمي في القضاء على الدغمائية العقلية والميتافيزيقية التي جنح إليها هؤلاء، بسبب اعتقادهم أن التصورات العقلية ناشئة عن الفطرة وأن العقل يمتلك مجموعة من الأفكار القبلية عن العالم الخارجي، لكن الواقع التجريبي لا يؤيد هذا الزعم، وبالتالي كشفت هذه الانتقادات التجريبية هشاشة النسق العقلاني في موقفه حيال المعرفة والادراك وتشكل التصورات والمعاني والمسائل اللغوية التي حادت عن الفهم الصحيح لها.

هذه الخلافات الفكرية الحاصلة بين أنصار المذهب العقلاني والمذهب التجريبي، يوحي بأن التعمق في فهم الصورة الفلسفية حول مسائل المعرفة والادراك و مصدر المعاني والتصورات والانطباعات الفكرية التي تحصل في الذهن البشري، فكان من الطبيعي أن " يختلف منهج الفيلسوف التجريبي اختلافاً أساسياً عن منهج المذهب العقلي، فالفيلسوف التجريبي لا يزعم أنه اكتشف نوعاً جديداً من المعرفة يعجز العالم عن الوصول إليه، وإنما يقتصر على دراسة المعرفة المستمدة بالملاحظة وتحليلها، سواء أكانت معرفة علمية أو معرفة عادية، ويحاول فهم معناها ومضمونها وليس مما يضير هذا المفكر أن تسمى نظرية المعرفة المبنية على هذا النحو معرفة فلسفية، غير أنه يرى أنها مستمدة بنفس المناهج التي يستخدمها العالم، ويرفض تفسيرها على أنها نتاج لقدرة فلسفية خاصة"[1] .

هذا الذي لجأت إليه النظرية التصورية في تمثلها لمبدأ التصور الذي يشير إليه المعنى القائم في الذهن، وهذا ما فعلته النظرية التجريبية أثناء قيامها بعملية تقويم بعض التصورات التي كانت سائدة في الفلسفة

---

[2] – حبيب الشاروني: فلسفة فرنسيس بيكون، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط1، 2005،ص 56.

[1] – هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي، القاهرة ـ مصر 1968، ص 76.

العقلية، وما نشب بينهما من خلافات فكرية ونظرية حول مسائل المعرفة والحقيقة والذات والمعنى كانت تثار على مستوى الأسس والمبادئ المعتمدة في احكام النسق الفلسفي، وبهذا كانت"التجريبية "الأنجلوسكسونية" القديمة، أكثر دلالة ،حين أكدت في أطروحاتها أن تشكل اللغة يخضع إلى طبيعة تكوين الأفكار، وأن الأفكار هي علامات للأشياء، وأن الكلمات هي علامات للأفكار "[2] .

فهذه الفكرة المتعلقة بالمعنى والتصورات من حيث جذرها الفلسفي والإشكالي؛ تعود إلى الفيلسوف الانجليزي "جون لوك" John Locke (1632-1704) عندما أدرج هذه المفاهيم ضمن الحدود اللغوية، وعندها أصبحت اللغة مشكلة مركزية في الأبحاث التي تشتغل عليها نظرية المعرفة، وقد قدم " لوك " " تفسيراً أكثر اتساعاً للغة من وجهة نظر تجريبية واسمية. وكان مضطراً أن يفعل ذلك لكي يفند تلك الأنواع من الادعاءات التي استقر عليها المذهب العقلي الذي كان لا يزال موجوداً في عصره والذي كان ينظر إلى المفاهيم أو الكليات على أنها حقائق واقعية قصوى ذات وجود مستقل خاص بها، ويمكن أن تستمد من تعريفاتها معرفة أبعد دون ملاحظة تجريبية " [1].

لقد تمكن المذهب التجريبي بطريقته الخاصة من اجتياح معاقل المذهب العقلاني عندما وجه له هذا الأخير انتقادات لاذعة من باب الاهتمام الكبير بالمعرفة وبالمسائل العلمية التي بدأت تحظى باقبال واسع في وضع مقدمات قوية، أسهمت بدورها في طريقة تغيير صورة الفعل الفلسفي الذي ينبغي في نظر المذهب التجريبي، أن يشتغل على التحرر من المحاضن الميتافيزيقية التي فرخت في أذهان التيار العقلاني، لذلك أصبح أسلوب التفكير العلمي، هو الأكثر حضورا وعلى نطاق واسع جداً في المساجلات الفكرية، مما هيأ الأجواء الملائمة لكي يأخذ التفكير العلمي مواصفات ابستيمولوجية يعمل خلالها على تجديد نظرية الفعل المعرفي، ويحدث تمييزا دقيقاً بين الأبحاث الفلسفية والعلمية، كما تمكن إلى حد بعيد مجاوزة الفهم التقليدي لنظرية المعرفة، كما تناغم المذهب التجريبي بشكل ايجابي مع الثورات العلمية، هذه الثورات التي تزايد نفوذها وقدرتها في احداث انقلابات واسعة على المستويات المعرفية والاخلاقية والدينية والسياسية، تمكنت من خلالها اضاءة المجتمع الغربي التمسك بثقافة العلم والمعرفة.

---

[2] - G.G.Granger : Langages et Epistémologie , op, cit, p.12.

[1] -وليم كلى رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، مصر الطبعة الثانية، 2005، ص 166.